الفصل العاشر

المقاومة الفلسطينية بعد حرب 1967

كسبت المقاومة الفلسطينية زخما شعبيا كبيرا على امتداد الوطن العربي بعد الحـرب بسـبب امتشـاقها السـلاح والمباشرة بشن عمليات فدائية ضد الإسرائيليين في الضفة الغربية وغزة وفي الأرض المحتلة/ 1948. حركة فتح كانت الرائدة والوحيدة. ابتدأت العمل الفدائي وأخذت باستقطاب المقاتلين وتدريبهم بخاصة في شرقي الأردن حيث لم يكن النظام قادرا على منع النشاط العسكري ضد إسرائيل. وما لبثت فصائل أخرى أن تشـكلت مثـل الجبهـة الشعبية وأخذت تمارس العمل العسكري. توالت البيانات العسكرية حول نجاع العمليات وبدأت معنويات الجماهير تتحسن وترتفع، ولم يكن مستغربا أن تكتسب المقاومة ذلك الزخم الكبير. لقد كانت البندقية الوحيدة المفتوحة فـي وجه إسرائيل في الوقت الذي لاذت فيه البنادق الأخرى إلى صمت الهزيمة. لقد بعثت الأمل في الناس فجادوا لها بما يستطيعون.

بسبب الهزيمة وفتح البندقية ضد إسرائيل استقالت، كما أشرت سابقا، قيادة منظمة التحريـر الفلسـطينية لتخلـي السبيل أمام المقاومة لقيادة الشعب الفلسطيني. سيطرت حركة فتح على المنظمة وأشركت بعض التنظيمات معهـا لتصبح المنظمة المظلة العامة التي تضم الفلسطينيين بكافة فئاتهم. المهم أن المقاومة أخـذت تتعـاظم وعملياتهـا العسكرية استمرت في الازدياد حدة وعددا، فرأت إسرائيل أهمية القيام بعمل عسكري يقضي عليها.

معركة الكرامة

اجتازت القوات الإسرائيلية خط النار مع الأردن وهو نهر الأردن في 21/ آذار، مارس/ 1968 بهدف القضـاء على المقاومة الفلسطينية التي كانت تتخذ من مخيم الكرامة في غور الأردن مركزا ميدانيا رئيسـا لهـا. دخلـت القوات الإسرائيلية المزودة بالمدرعات والدبابات والملالات والمدعومة بالطـائرات الحربيـة لتقضـي، حسـب التصريحات الرسمية الإسرائيلية، على المقاومة الفلسطينية. لم تكن القوات الفلسطينية مزودة بتجهيزات عسـكرية مكافئة واعتمدت على أسلحة خفيفة وإرادة قتالية صلبة وعلى أسلوب حرب العصـابات. دارت معركـة حاميـة الوطيس داخل المخيم استمرت من الفجر حتى المساء. تدخل الجيش الأردني بعد عدة ساعات من بداية المعركة، وقد كان لذلك وقع كبير في سير المعركة وأحدث توازنا نسبيا بين القوى.

استمرت المعركة منذ الصباح مع المقاومة الفلسطينية التي أبلت بلاء حسنا، وعند الظهر تقريبـا تـدخل الجـيش الأردني وفتح نيران مدفعيته على القوات الغازية. لتحم أفراد المقاومة وأفراد الجيش الأردني معا ضـد الجنـود الإسرائيليين الذين كانوا مطمئنين أصلا إلى عدم تدخل الجيش الأردني. لم يكن رئيس أركـان الجـيش الأردنـي مشهور حديثة راضيا لبقاء الجيش الأردني مراقبا للمعركة وكأنه في قاعة أرض أفلام، فأصدر أوامره بالتـدخل

على الرغم من عدم رضا البلاط الملكي. ولهذا لم يستمر في منصبه طويلا بعد انتهاء المعركة. دمرت إسـرائيل المخيم واستطاعت أسر عدد من رجال المقاومة، وسقط عدد من الشهداء من صفوف المقاومة والجيش الأردني. وقد تكبدت إسرائيل خسائر غير متوقعة في المعدات والأنفس إلى درجة أنها تركت بعض آلياتهـا المـدمرة فـي أرض المعركة. تم قطر هذه الآليات إلى عمان لعرضها أمام الناس، ولم يتوان الملك فـي الـذهاب إلـى موقـع العرض لالتقاط الصور على أنه بطل المعركة.

على الرغم من أن خسائر الجانب العربي كانت كبيرة إلا أن المعركة كانت مفخرة بالنسبة للعرب بخاصة للمقاومة الفلسطينية. فقد كانت المعركة القوية الأولى التي جسدت مواجهة حقيقية بين العرب والجيش الإسرائيلي بعد حرب عام 1967. استبسلت المقاومة الفلسطينية وكذلك فعل الجيش الأردني وخاضا معركة اختلفت في الأداء والصيالة عن حرب 1967 التي كانت مهزلة في تاريخ الحروب. بعثت المعركة في نفوس العرب الحماس ومشاعر العـزة والكرامة، وشعروا أنهم أهل للمعارك وقادرون على إعادة تنظيم صفوفهم وتلقين إسرائيل دروسا في القتال والكر والفر.

كانت المعركة، على وجه التخصيص، انتصارا للمقاومة الفلسطينية فتَح أمامها الأبواب للتطور والتطوير وزيـادة حدة الحشد والاستعداد. لقد بهرت المعركة العرب والمسلمين فازداد احترامهم للمقاومة الفلسطينية ورغبتهم فـي تقديم الدعم لها. وهكذا كان. تدفقت أعداد المتطوعين على المقاومة الفلسطينية بخاصة على حركة فتح، وتـدفقت التبرعات وفتحت وسائل الإعلام أبوابها وصدورها للدعم والتعريف بأهداف المقاومة وبطولاتها. بلغ الأمر إلـى عدم قدرة حركة فتح على استيعاب المتطوعين بسبب عدم وجود تجهيزات كافية مثل البنادق والخيام وما شـابهها من مستلزمات إعدادية وقتالية. كما أن انهمار التبرعات مكن الفصائل من تحسين قدراتها الاستيعابية.

على الرغم من السمعة الطيبة التي كسبتها المقاومة ومن الشعبية الجارفة التي حظيت بها على مسـتوى الـوطن العربي إلا أن مشاكل عدة قد نجمت عن التطورات التي تلت أحاول أن أشرح بعضها فيما يلي:
أولا:اختراق صفوف المقاومة الفلسطينية بشكل خطير من قبل أجهزة مخابرات مختلفة. لم تكن صفوف المقاومـة بمنأى عن الاختراقات الأمنية من قبل أجهزة المخابرات المعادية قبل معركة الكرامة إذ اتضح أن بعض العمليات العسكرية التي قامت بها المقاومة في منطقة الأغوار ضد الأهداف الإسرائيلية قد فشلت بطريقة تضـع علامـات استفهام على مدى سرية العمل العسكري. فشلت عمليات وهي على وشك التنفيذ وهوجمت مجموعات عسكرية من قبل كمائن عسكرية إسرائيلية نصبت سلفا. كما أن معركة الكرامة ذاتها بينت أن الإسـرائيليين كـانوا يملكـون معلومات لا بأس بحجمها وأهميتها حول تحركات ومراتب رجال المقاومة الفلسطينية. لكن هذا الاختـراق اتسـع وتمدد وتجذر بعد معركة الكرامة.

عملت المقاومة الفلسطينية عن قصد أو غير قصد على فتح أبوابها للمتطوعين الذين وفدوا مـن مختلـف الـدول والبقاع، ولم يكن يمنعها من قبول أحد إلا محدودية طاقتها الاستيعابية. لم تعمد المقاومة إلى تفحـص الأشـخاص

المتطوعين ولم تلجأ إلى التدقيق بماضيهم ولم تخضعهم لفترة اختبارية من أجل التأكد من نواياهم. أصبح الـدخول في صفوف المقاومة عملية سهلة ولا تكلف الشخص سوى الإعلان عن نواياه واستعداده للانضمام إلى الثـوار. وبهذا تحولت صفوف المقاومة وبالأخص صفوف حركة فتح إلى ما يشبه الزقّة التي يمكن أن يشارك بها أي عابر سبيل. بعثت أجهزة المخابرات المختلفة وعلى رأسها المخابرات الاسرائيلية والعربيـة والأمريكيـة بمنـدوبيها ليصبحوا رفاق سلاح مع المقاتلين الفلسطينيين، وليصبحوا إداريين وقادة في مختلف الفصائل.

ثانيا: تجاوز شعب وقيادات شرقي الأردن. شعرت المقاومة الفلسطينية بالكثير من العظمة بعد معركـة الكرامـة وبالكبرياء الزائدة عن اللازم، فأخذت تتصرف على أنها الآمر الناهي في شرقي الأردن. هنا لا أتحدث عن النظام الأردني وإنما عن الناس الذين من المفروض أن يشكلوا العمق الإنساني والمعنوي والمادي للمقاومة. كانت العقدة العربية التفاخرية موجودة لدى رجال المقاومة قبل معركة الكرامة، وهي عقدة سلوكية يتناقلها العرب من جيل إلى جيل وما زالت موجودة بصورة قوية حتى الآن. يدعو مصدر القوة سواء كان مالا أو سلاحا أو منصبا أو جاهـا أو غير ذلك إلى نوع من التصرف بفوقية أو أبوية تسلطية، وإلى استعراض الذات وتأكيد قدراتها فـي مواجهـة قدرات الآخرين. وهذه عقدة تشكل مظهرا بارزا من مظاهر التخلف العربي وسببت للعرب الكثير مـن المشـاكل الداخلية والنزاعات وساعدت في صنع أجواء الكراهية والعداء بين العائلات المختلفة وكذلك بين الأفراد. مـارس رجال المقاومة هذه العقدة قبل معركة الكرامة، لكن ممارستها تضاعفت بحجمها وتهورها بعد المعركـة. شـعر رجال المقاومة أنهم سادة الموقف وصانعو معركة البطولة التي رفعـت رؤوس العـرب، وبـدل أن يتواضـعوا ويقتربوا من الناس أخذوا يقومون بأعمال تحت شعار يحق للفدائي ما لا يحق لغيره، ويتصرفون على أنهم القـادة الذين يخططون ويقررون ويأمرون وينهون. ولم تكن هذه ممارسات العناصر والأفـراد، وإنمـا كانـت أيضـا ممارسات القيادات.

أدت الممارسات هذه إلى نتيجتين:

أ- كراهية الناس بالأخص الأردنيين للمقاومة الفلسطينية بصورة خاصة والفلسطينيين بصورة محـدودة. أخـذت المقاومة الفلسطينية زمام الأمور بأيديها وعملت على أن يكون الأردنيون ومن ضمنهم القادة الـوطنيين ووجهـاء العشائر وقادة الفكر تابعين لها ويأتمرون بأوامرها. لقد همشت المقاومة زعماء الأردن وقادتها ووجهاءها وقلصت أدوارهم ووجهت إليهم الإهانات، ووضعت الفلسطيني في مرتبة أعلى في مواجهة الأردني. ساد اعتقـاد عندئـذ لدى عدد من قادة المقاومة وعدد من الناس الفلسطينيين العاديين بأن الأردنيين متخلفين وغير قادرين على القيادة والتفكير السليم، وأنهم بحاجة إلى سنوات طويلة قبل أن يخرجوا من حياة البـداوة البدائيـة. وسـاد ظـن بـأن الفلسطينيين هم أهل الثقافة والعلم وأنهم يتفوقون على شعوب الأمة العربية الأخرى. وقد كرست قيادات المقاومـة الفلسطينية هذا الوهم وضيق الأفق مما دفع الفلسطينيين إلى تصرفات خارجة عن التوازن والاتزان. صـحيح أن العربي غربي الأردن حظي بقسط من التعليم أكثر من العربي شرقي الأردن لأسباب مختلفة، لكنه ما كان يتوجب أن يتناسى الفلسطيني أو ينسى أن شرقي الأردن كان إحدى المناطق العربية التي لجأ إليهـا. وصـحيح أن هـذه الأرضية لم تكن مريحة واحتوت على منغصات ومشاكل لكنها كانت أفضل من أرضية أخرى تضع الفلسـطيني في تيه. كان من المفروض أن يتحلى قادة المقاومة بنظرة توازنية ومن منطلق أن العرب في كل مكان يواجهـون نفس المصير، ومعا يبنون مستقبلهم، لكن الممارسة الفوقية كانت أقوى من الاعتبارات العقلية.

ب- ارتفاع حدة الوعي القطري والشعور بالانفصال لدى الشعبين الأردني والفلسطيني. كان هذا الوعي موجـودا قبل المقاومة الفلسطينية لكنه كان على وتيرة هادئة وخاصا برجال السياسة وبعض المثقفين، ولم تكن له جـذور ضاربة في الشارع الفلسطيني والأردني. اختلف الأمر على إثر هذه الممارسات وأخـذت مشـاعر الانفصـال تضرب جذورا عميقة وتأخذ حيزها في الانفعال الأردني والفلسطيني. وبهذا لا أقصد هنا أن أبـرىء قـادة فـي الجانب الأردني من الدفع بهذا الاتجاه أو أنفي دورهم التخريبي في ضرب وحدة الشعب العربي فـي القطـرين، لكنني أركز على الدور الفلسطيني لأنه هو المبادر إلى المقاومة وهو من المفترض أن يكون معنيا بالبحـث عـن أسباب القوة وصنع الظروف الملائمة للاستمرار والتحصين وحشد الطاقات المختلفة. تكرس هذا البعد القطري في التعامل مع الميثاق الوطني الفلسطيني الذي كان تعديلا للميثاق القومي الفلسطيني. طبعا لا يمكن أن نفصل التطور الميداني "لقطرنة" البعد الفلسطيني عن منطلق حركة فتح أساسا، لكن المسألة تمت بصورة فجة كان من شـأنها قطع الأواصر وخلق أجواء من الكراهية والأحقاد والمواجهة. وبهذا بدأت مرحلة من الابتعـاد عـن الجمـاهير العربية وحصر الفلسطينيين ضمن فلسطينيتهم، وفيه أيضا ما ينسجم مع رؤية عدد من الأنظمة العربيـة لكيفيـة ترتيب الأوضاع في الوطن العربي المنطلقة من التحوصل وخلق ثقافات متباعدة بين الشعوب العربية. أدخل هـذا الأمر الفلسطينيين ضمن دائرة الصراعات الرسمية العربية وأبعدهم عن دوائر البحث عن انسجام شـعبي علـى مستوى الوطن العربي، مما كان له انعكاسات خطيرة على القضية الفلسطينية والشعب الفلسطيني في السنوات التي تلت، والتي ما زلنا نشهدها حتى الآن.

ثالثا: التدهور الأخلاقي على مستوى التعامل اليومي. خرج العديد من أفراد المقاومة الفلسطينية عن حدود السلوك اليومي القويم وأخذوا يتجاوزون بصورة فظة بما في ذلك التدخل في شؤون النـاس الخاصـة والاعتـداء علـى ممتلكاتهم والمس بأعراضهم. أخذ يتصرف العديد من أفراد المقاومة وكأنهم أصحاب السلطة وأصحاب القـرار مما خلق أجواء من الاشمئزاز لدى العديد من الناس في الأردن بخاصة الأردنيين منهم. كانت تتم التجاوزات تحت سمع وبصر القيادات الفلسطينية، ولم تكن قوات الانضباط التنظيمي تقوم بواجبها. بل أن القيادات ذاتها ومسؤولي الانضباط كانوا سباقين في الانحراف والتدهور الأخلاقي. لم تكن هناك قواعد أخلاقية تضبط تلـك القيـادات ولا معايير تقوم على سعة الأفق والحرص على الميزان وقيم العدل. ومن البديهي أن يتراكم رد فعل جماهيري سلبي اتجاه المقاومة الفلسطينية والقائمين عليها. وعلى الرغم من الأصوات الفلسطينية والأردنية الكثيرة التي نبهت إلى خطورة السلوك غير القويم إلا أن القيادة الفلسطينية لم تعمل على تصحيح الأخطاء وتركت الأمور تستفحل.

أساء العديد من أفراد المقاومة لمختلف فئات الناس. حاولوا ابتزاز التجار، ولاحقوا النساء، وأهانوا الضـباط فـي الجيش، وعبثوا في المؤسسات العامة، وعملوا على إذلال المسؤولين، وتدخلوا ما بين الزوج وزوجه وما بين الأخ وأخيه، الخ. هذا ناهيك عن الاستعمال الارتجالي واللامنطقي للسلاح الذي كان بين أيديهم. كان ينطلق الرصـاص في شوارع المدن عامة لسبب أو لغير سبب ولأتفه الأمور. تجاوزت تلك الأعمال كل المقاييس التـي يمكـن أن تكون مقبولة أخلاقيا وتناقضت تماما مع المتطلبات الأخلاقية للثورة والتحرير.

هذا لا يعني في أي حال من الأحوال أنه لم تكن هناك جهات تعبث بالوضع وتقوم بالممارسات اللاأخلاقية وذلـك بهدف الإساءة للمقاومة الفلسطينية. لقد عملت بعض الجهات على تجنيد أناس من أجل القيام بالأعمـال المخلـة بالأدب والأخلاق القويمة بهدف صنع هوة كبيرة من الكراهية بين رجال المقاومة وعموم الناس والذي من شـأنه أن يقود إلى صراع وتفتيت للقوى. من شأن الثورة أن تشكل خطرا على عدة جهات في المنطقة، والإساءة إليهـا وتخريبها من الداخل خاصة يشكلان أولوية لهذه الجهات. كان الملك حسين على رأس هذه الجهات خاصة أنه كان يتحفز للانقضاض على المقاومة الفلسطينية ليس لأنها كانت تسيء للناس وإنما لأنها كانت تتناقض مع الغرض من وجوده كحاكم لشرقي الأردن يعمل على حماية الحدود الشرقية لإسرائيل. نصب الاسـتعمار البريطـاني عائلـة الملك على شرقي الأردن مقابل أن تدافع عن المصالح الغربية الاستعمارية وأن تنفذ الأهداف الغربية في المنطقة العربية. وحيث أنه لم يكن بمقدور الملك أن يضرب المقاومة الفلسطينية مباشرة بعد الهزيمة، وجد أنه من المهـم خلق الظروف المناسبة لتوجيه ضربة مبررة جماهيرية. وبالتأكيد كان الملك سعيدا بسوء صنيع رجـال المقاومـة وعمل جهده على إنشاء تشكيلات تعمل تحت شعار المقاومة لتعزز الاستياء الشعبي الذي برر للملك أعماله ضـد المقاومة.

لكن المشكلة ليست حقيقة في الجهات الخارجية وإنما في المقاومة الفلسطينية ذاتها التي كانت تسمح بالتجـاوزات وتغض الطرف عنها. أي أن المقاومة ذاتها قد خلقت الأجواء المناسبة للقوى المختلفة لتنفيذ مآربها. وبما أن القيادة الفلسطينية كانت تعي ما يجري داخل المقاومة، وهي نفسها كانت تمارس ذات الممارسات فإنها تلتقي في النهايـة مع القوى المعادية عن قصد أو عن غير قصد.

سارت فصائل المقاومة تتخبط في الوقت الذي خاضت فيه تنافسا ضد بعضها بعضا من أجـل إثبـات الزعامـة ومحاولة بسط الهيمنة على الساحة. ولم يكن التنافس مقتصرا على إرسال الخلايا المسلحة عبر الأردن، بل كـان أيضا من خلال المواجهة العسكرية فيما بينها. لقد فتحت الفصائل الفلسطينية النار في مواجهة بعضها بعضا عـدة مرات في الأردن، وقامت بغزوات متبادلة على القواعد العسكرية والمراكز الإدارية راح ضحيتها عدد لا بأس به من أبناء فلسطين. هذا فضلا عن أن أعداد الفصائل الفلسطينية في الأردن أخذت بالتزايد. انشـقت فصـائل عـن فصائل وظهرت فصائل جديدة وقيادات كثيرة. عدد من هذه الفصائل تم إنشاؤه من قبل الدول العربية التي كانت تتنافس على النفوذ داخل المقاومة الفلسطينية ومنظمة التحرير، وبعضها لا بد أن تم إنشـاؤه مـن قبـل أجهـزة مخابرات معادية، لكن بعضها نشأ فلسطينيا. أدى ذلك إلى الشرذمة والتفتت وضعف القدرة على توحيد الصف.

حرب أيلول

لم تكن الحرب بين الجيش الأردني والمقاومة الفلسطينية عام 1970 مفاجئة. كان الصدام حتميا بسـبب الوضـع السياسي العام الذي يميز الأنظمة العربية ومدى استعدادها لتكريس الطاقات لمواجهة إسرائيل. أي أن المقاومـة تتناقض تماما مع وضع الأنظمة العربية وسياساتها وطموحاتها، وكان الانقضاض على المقاومة خاضعا لمسـألة

الوقت وليس لمسألة المبدأ. وإذا كانت المقاومة قد عاشت في الأردن ثلاث سنوات فذلك بسبب ظروف هزيمة عام 1967، وليس لأن النظام الأردني كان يرغب بوجودها.

على الرغم من هذه الحتمية إلا أن المقاومة الفلسطينية قد صنعت الظروف المناسبة لتعجيل الانقضـاض عليهـا. فبدل أن تتبع السياسات المتناسبة مع إطالة العمر، اتبعت سلوكيات تعجل من تقصير العمر. لقـد أدت سـلوكيات المنظمة والمقاومة بصورة عامة والمذكورة أعلاه إلى خلق أجواء معادية في أوساط الشعب العربي فـي الأردن سواء كان من أصل شرق أردني أو فلسطيني وأوساط الجيش الأردني. وقد كانت هذه الأجواء متناسبة تماما مـع وجهة نظر النظام في كيف يجب أن تدار الأمور في الأردن والتوجهات السياسية التي يجب أن تحكمها.

كانت المحصلة خروج المقاومة الفلسطينية من الأردن. حشد النظام الأردني قوات ضخمة حول عمان لم يكن قـد حشد ما يوازيها ضد إسرائيل، وانقض على المقاومة. دارت مارك حامية الوطيس في عمان ذهب ضحيتها الكثير من الأنفس والممتلكات. دعا جمال عبد الناصر إلى عقد مؤتمر قمة عاجل لمعالجة الأمور. اتفق المؤتمرون فـي القاهرة على ضرورة خروج المقاومة الفلسطينية من المدن والتمركز في مناطق المواجهة ضد إسرائيل. حزمـت المقاومة أمتعتها وخرجت من المدن، لكن النظام الأردني لاحقها عام 1971 في أحراش دبـين وعجلـون وفـي الأغوار وطردها نهائيا من الأردن، ولم تعد حتى الآن. أعلن الملك أنه مع الفدائي الشريف وقال "كلنا فـدائيون". لكن يبدو حسب تعريفه أنه لا يوجد فدائي شريف واحد.

الخروج من الأرض المحتلة/67

لا أعني بالخروج هنا الرحيل وإنما القضاء على المقاومة الجدية في الأرض المحتلة عام 1967. وحتى تتضـح الفكرة أعرّف المقاومة هنا على أنها محاولة إلحاق الأذى المباشر بالعدو ومنعه من تطبيق سياساته. يشـمل هـذه التعريف أربعة أشكال للمقاومة أرتبها تصاعديا فيما يلي:

أ- المقاطعة والتي تعتبر أدنى أنواع المقاومة، وهي تعني عدم التعاطي مع العدو في مجالات الحياة اليومية وبالأخص في المجال الاقتصادي. من أدنى صنوف المقاومة أن يعمل الشعب الواقع تحت الاحتلال على مقاطعة القوة المحتلة وبالتحديد على عدم شراء ما تنتجه من بضائع وسلع، والتركيز على مهمة الاكتفاء الذاتي بمعزل عن العدو. هذا أقل ما يمكن أن يعمله من يأبى وجود قوة قاهرة تسيطر عليه.

عمل بعض الأفراد على تبني المقاطعة بعد الاحتلال مباشرة، وحاولوا نشر فكرتهم وترسيخها إلا أنهم فشلوا فـي ذلك. هناك أسباب عدة لهذا الفشل من ضمنها غياب الوعي الجماهيري بأهمية هذه الخطوة، وعدم وجودها ضمن برنامج ورؤية منظمة التحرير الفلسطينية. لقد تدفق الفلسطينيون منذ الأيـام الأولـى للاحـتلال إلـى المنشـآت

الإسرائيلية للعمل وتزايد عددهم مع الزمن، وأخذوا يقيمون علاقات تجارية مع إسرائيل. وهكذا تُرك الناس بـدون قيادة توضح لهم المخاطر والأضرار التي يمكن أن تلحق بالشعب جراء ذلك.

ب- العصيان المدني الجزئي والذي يعني الرفض الجماعي لإجراءات احتلالية منتقـاة مثـل عـدم دفـع الضرائب وعدم ترخيص السيارات والخروج بدون حمل الهويات العسكرية. من الممكن أن يتم هذا مـع إجراء المقاطعة.

ت- العصيان المدني الشامل والذي يعني الرفض الجماعي لكل إجراءات الاحتلال المدنية بمـا فـي ذلـك التخلص من الهويات التي تم إصدارها. هذا مع إجراءات المقاطعة.

ث- المقاومة المسلحة وهي أرقى أنواع المقاومة وأشدها وطأة على الاحتلال وعلى الناس في آن واحد. وقد ثبت تاريخيا أن هذه هي أكثر أنواع المقاومة فعالية. على الرغم من أنها تكبد الناس خسائر جسـيمة إلا أنها تضع الاحتلال أمام خيار الاستنزاف أو الخروج من الأرض المحتلة. ومن الناحية التاريخية، كـان يختار الاحتلال الخروج.

إذا وقفنا عند هذا النوع من المقاومة وأجرينا إحصاء لمجمل الخسائر الفلسطينية تحت الاحتلال سواء كـان فـي الأنفس أو الممتلكات أو الاعتقالات والأحزان، ربما نجد أن الشعب قد قدم تضحيات جسيمة كان من الممكـن أن تقوده إلى التحرير لو قرر أن يقدمها ضمن مقاومة عسكرية متواصلة أو ثورة مسلحة. كان من الممكن للشـعب الفلسطيني أن يخوض صراعا مسلحا يجعل أيام الاحتلال قصيرة مثلما حصل في الجنوب اللبناني بعد حرب عـام 1982.

إذا تتبعنا مسيرة منظمة التحرير عبر سنوات الاحتلال نجد أنها لم تعمل على صنع مقاومة منهجية وفق برنـامج واضح. ولم يحصل أن تبنت أي نوع من الأنواع المشار إليها بصورة منظمة إلا في مراحل قصـيرة وفتـرات محدودة كان منها محاولة ترسيخ مقاومة مسلحة بعد حرب عـام 1967 مباشـرة، ومحاولـة جمـاهير الشـعب الفلسطيني تبني المقاطعة الاقتصادية خلال الانتفاضة لعام 1987. لم تكن في الأرض المحتلة/67 مقاومة منهجية منظمة ذات أركان وأسس وآليات تقود إلى إرغام العدو على التفكير بالرحيل من خلال خسائر لا يقـوى علـى احتمالها سواء على المستوى الشعبي داخل إسرائيل أو على مستوى الحكومة.

قامت بعد حرب حزيران محاولات عسكرية في مواجهة العدو بخاصة في سـاحل غـزة. اسـتطاعت الخلايـا العسكرية السرية أن تقوم بعدد من الهجمات الناجحة ضد أهداف عسكرية إسرائيلية أدت إلى اسـتنفار عسـكري إسرائيلي وإلى خسائر في الأنفس والمعدات. لكن هذه المحاولات لم ترتق إلى ثورة، أي لم تتحول إلـى ظـاهرة ثورية مسلحة يتسع مداها ونطاقها وتزداد حدتها بحيث تلحق آلاما متزايدة في جانب العدو. لكنها، علـى الأقـل، كانت خطوة في اتجاه مقاومة منظمة من الممكن أن تتعمق مع الأيام وتراكم الخبرة القتالية في حرب العصـابات.

وقد انتمت هذه الخلايا أساسا لحركتي فتح والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وبدرجة أقل الجبهة الشعبية-القيـادة العامة.

بالطبع عملت إسرائيل على حشد طاقاتها لمواجهة هذه المحاولات، لكن الأمر الحاسم في تراجع هذه المحـاولات تمثل في الاختراقات الأمنية في صفوف فصائل المقاومة وصفوف الشعب الفلسطيني. تم اختراق صفوف الفصائل كما أشرت سابقا وارتقى جواسيس إسرائيل وعملاؤها في سلم المسؤولية في المقاومة الفلسطينية وأخذوا يطلعون على الأسرار والخبايا مما مكن إسرائيل من الإجهاز تدريجيا على خلايا المقاومة داخـل الـوطن. واسـتطاعت إسرائيل أن تكبت هذه المحاولات وأن تمنع تطورها إلى ظاهرة ثورية يومية. لم يعمل الجواسيس أو الاختراقـات الأمنية فقط ضد أعمال المقاومة داخل الوطن، وإنما عملت أيضا ضد المقاومة خارجه أيضا. إذ أن الكثيـر مـن العمليات العسكرية التي كانت تنطلق من شرقي الأردن كانت تجهض من قبل الإسرائيليين. وعلى الرغم مـن أن البيانات العسكرية الفلسطينية حول هذه العمليات كانت تتحدث عن خسائر فادحة في الجانـب الإسـرائيلي، إلا أن الأرقام التي كانت تتوردها المقاومة الفلسطينية حول هذه الخسائر كان مبالغا فيها. لقد تكبدت المقاومة الفلسـطينية خسائر كثيرة في هذه العمليات وأكثر مما كان يتكبده الجانب الإسرائيلي.

كان من المأساوي أن العديد من خلايا العمليات العسكرية القادمة من الخارج كان يقع في الفخ الإسـرائيلي الـذي كان ينصب مسبقا بناء على علم مسبق بالتحرك الفلسطيني. لقد استشهد العديد من أبنائنا الفلسطينيين في شـراك إسرائيلي مسبق، وكان الجانب الإسرائيلي هو الذي يفاجئ الخلايا العاملة بدل أن يكون العكـس. أمـا البيانـات الفلسطينية كانت تتجاوز هذا الأمر وتعلن للجمهور عن تحقيق انتصارات متتالية ضد الإسرائيليين. والغريب في الأمر أن بعض قادة المجموعات الذين كانوا يدخلون غربي الأردن ويعودون شرقيه تاركين وراءهم الشهداء كانوا يرسلون مرة ثانية في قيادة مجموعات جديدة لتلقى نفس المصير. والأكثر غرابة أن هؤلاء لم يتعرضوا للمساءلة عما جرى ولم تجر بحقهم محاكمات عسكرية. لقد كان الأمر مذهلا ومرعبا. لماذا كان يفلت شخص من رصاص العدو دون زملائه، وثم يعود إلى رأس مجموعة ليفلت مرة أخرى دون غيره ويبقى هناك في موقعه أو يرتقـي إلى موقع أعلى؟ فهل كان ينظر إليه على أنه بطل استطاع أن يراوغ رصاص العدو ويثبت قدرة خارقة علـى النجاة؟

إن فشل العمليات العسكرية الخارجية القادمة من شرقي الأردن، وتآكل العمل العسكري داخل الـوطن أظهـر أن هناك خللا خطيرا في صفوف المقاومة الفلسطينية، لكن أحدا لم يتحرك لتصحيح الوضع أو التحقيق فيه أو معرفة أسبابه. لقد تركت الأمور ضمن قالب إعلامي للتأثير في الناس مغطى ببيانات عن انتصارات وهمية. ولم يكـن لدى الناس بصورة عامة الوعي لإثارة التساؤلات أو البحث عن الحقائق. فقد أخذوا بفكـرة المقاومـة المسـلحة وغلفت عقولهم الخطابات الرنانة وأزيز الرصاص الاحتفالي في شوارع عمان والجنازات الحاشدة لشهداء كـانوا يسقطون على ضفاف الأردن.

يبدو أن الخلل الخطير لم يكن في الصفوف الدنيا في المقاومة، بل كان واضحا أن الاختراقات الأمنية كانت في الطبقات العليا من الهرم التنظيمي الذي كان يبدو ثوريا مكافحا على نمط جيفارا وهوشي منه وماوتسي تونغ. لقد حالت الصورة الذهنية المبنية في الشارع الفلسطيني والعربي عامة حول المقاومة ورجالاتها دون التساؤل والشك. وقد تعززت هذه الصورة بالتلفيق الإعلامي والبهرجة والشعارات والخطابات الرنانة، وترسخت بصورة واسعة بحيث أنها لم تكن حتى تسمح بمجرد التساؤل من قبل أحد يساوره شك حول ما يجري. فالتساؤل كان يعتبر خيانة لا تغتفر وعملا من أعمال الطابور الخامس الذي يخدم العدو.

كان يعتقل الأبطال الفلسطينيون ويستشهدون في ميدان المعركة، وكانت تحرص الجماهير كما القيادة على تمجيدهم والتعهد بالسير على خطاهم. لكن الجماهير لم تكن تسأل لماذا كان الاعتقال ولماذا انتهت العمليات بالاستشهاد؟ لم يسأل الناس عن سبب اعتقال خلية في غزة عملت في السر فترة من الزمن دون أن يلحق بها أذى، ولا عن نجاح الإسرائيليين المتزايد في ضرب خلايا المقاومة. ولم يسأل الفدائيون الفلسطينيون شرقي الأردن عن خسائرهم في الأنفس والقضاء على خلايا بأكملها وهي تجتاز النهر لمواجهة الإسرائيليين. هكذا سارت الأمور وكأن التفسير الخفي لكل ما يجري يقع على عاتق القدر الذي لا راد له ولا يخضع لأي عملية منطقية أو علمية.

أرخى القضاء على الخلايا العسكرية الفاعلة داخل الوطن السبيل نحو الركون إلى مواجهة العدو احتجاجيا. مع بداية السبعينات كان الإسرائيليون قد أقاموا إدارة عسكرية فعالة وسيطروا على الوضع العام في المناطق المحتلة وجندوا الكثير من الجواسيس والعملاء الذين قدموا معلومات وفيرة حول مختلف النشاطات الفلسطينية في مختلف مجالات الحياة. استتبت الأوضاع للإسرائيليين بطريقة بدا الفلسطينيون فيها وكأنهم خانعون مستسلمون ينتظرون فرجا يأتيهم من خارج البلاد. وباستثناء بعض عمليات عسكرية متناثرة على فترات زمنية متباعدة، اكتفى الشعب الفلسطيني بالاحتجاج على سياسات الاحتلال من خلال إضرابات واجتماعات مناهضة للاحتلال وتحشيد المظاهرات وغير ذلك.

مع مظاهر الاحتجاج هذه غابت عن العقول أمور بسيطة كان من المفروض أن ينظر فيها ويتم تدبرها. فمثلا لم يكن هناك تفكير في كيف يتم ترتيب أوضاع البلاد الاقتصادية بحيث يستطيع الشعب توفير لقمة العيش بدون الاعتماد على العدو، ولم يتم اتخاذ خطوات جدية نحو نثر المساكن في طول البلاد وعرضها علما أن قوانين الاحتلال بهذا الخصوص في السبعينيات لم تكن صارمة كما هي الآن في التسعينات. لم تكن هناك مشاريع إسكان ولا محاولات استصلاح أراض على نطاق واسع، ولم تتوفر عقلية تبحث عن وسائل للإنتاج والاعتماد على الذات. هذا فضلا عن أعداد الفلسطينيين المتزايدة التي توجهت نحو مواقع الإنتاج الإسرائيلية، ونحو العمل في المنشآت العمرانية الإسرائيلية وبالأخص المستوطنات.

سارت الأمور داخل الوطن الفلسطيني بطريقة عجيبة. فلسطيني يعمل في مصنع إسرائيلي ويساهم في القدرة الإنتاجية الإسرائيلية، وآخر يبني مستوطنة على أرض فلسطينية مصادرة، وآخر ينقل آخر أخبار النشاطات للعدو، وزعامات تتحدث عن التحرير القادم من الخارج، وإمام مسجد يخطب في الناس حول الكاسيات العاريات وعورة الوطن كلها مكشوفة، وتاجر يعقد صفقات تجارية مع العدو في الوقت الذي يلوم فيه العرب على التخاذل والخيانة، ومدرس يتوارى من أسئلة طلابه عن خريطة فلسطين وسبل التحرير، وقائد مظاهرة يخطب في الناس نهارا ويلوذ إلى مراكز العدو ليلا، وأم تنشد الخلاص بالدعاء وتطلب من ابنها أن يبتعد عن طرق المس بالمحتلين. لقد امتلأ الوطن بالتناقضات وبالأفعال التي تكذب الأقوال.

المقاومة في لبنان

انتقل مركز ثقل المقاومة الفلسطينية إلى لبنان بعد أن أنهي وجودها في الأردن. كانت المقاومة موجودة قبل ذلك خاصة في منطقة الجنوب، إلا أن قياداتها كانت في الأردن، وكان قد سبق أن تم الاتفاق بين الحكومة اللبنانية والمقاومة الفلسطينية على تنظيم أعمال المقاومة برعاية الرئيس الراحل جمال عبد الناصر عام 1969.

لم تكن كل فئات الشعب اللبناني متعاطفة مع القضية الفلسطينية والمقاومة الفلسطينية. فقد تراوحت مواقف تلك الفئات بين الرفض الشديد لوجود المقاومة وبين الترحاب. وجد اللاجئون الفلسطينيون والفئات اللبنانية المسحوقة اقتصاديا كالشيعة في المقاومة أملا عساه يخرجهم من أوضاعهم الحياتية المتردية وينظم صفوفهم من أجل التحرير، بينما وجد التنظيم الماروني وبعض الفئات الثرية سواء من المسلمين أو المسيحيين في المقاومة خطرا يتهددها. أي أنه على الرغم من وجود فئات من شأنها دعم المقاومة الفلسطينية، كانت هناك فئات لا يمكن أن تتعايش معها أو تتركها وشأنها. هذه فئات موالية للدول الغربية الاستعمارية وتربطها علاقات ودية مع إسرائيل، وكان صدامها مع المقاومة حتميا. هذا بالضبط كما هو حال النظام الأردني الذي لم يكن من المتوقع أن يتعايش مع المقاومة.

لكن المسألة كانت تعتمد جزئيا على المقاومة الفلسطينية وكيفية معالجتها للأمور بحيث يطول أمد وجودها على الأرض اللبنانية. بمعنى أن الصدام على الساحة اللبنانية كان متوقعا، ولكن من المهم أن تتخذ المقاومة مختلف الخطوات لتجنبه أو تأجيله لأقصى مدة ممكنة. لكن الذي حصل لم يختلف جذريا عما جرى على الساحة الأردنية. قامت المقاومة الفلسطينية بذات الممارسات التي ولدت كراهية لها في الشارع الأردني وألبت جماهير غفيرة ضدها. لم تتعلم المقاومة أي درس من التجربة الأردنية، وكررت ذات الأخطاء وذات السلوكيات.

ربما كان من الممكن أن يتجاوز المرء الأخطاء التي وقعت فيها المقاومة في الأردن على اعتبار أنها كانت حديثة العهد وغضة المراس ولا تملك تجربة عميقة في الحشد وكسب العطف والتأييد. فقادة المقاومة إجمالا لم يكونوا أصحاب تجربة غنية ولم تكن لديهم الخبرات العسكرية والسياسية والإدارية، وكان من الممكن تحت هذا التبرير

أن يتفهم المرء عجز هؤلاء القادة عن ضبط الأمور وأن يعطيهم هامش الظنون الإيجابية. هذا فضلا عن أن رجال المقاومة سواء كانوا قيادات أو أفرادا كانوا متأثرين بالتقاليد العربية وليس بالتقاليد والأخلاق الثورية. فجـذورهم التربوية وطريقة تفكيرهم المتأثرة بالقبلية وحب الظهور والمفاخرة والجري وراء المصالح الذاتية كانـت أقـوى بكثير من رغباتهم في حشد الطاقات بالصورة الأمثل التي تؤدي إلى التحرير.

لكن الجنوح نحو هذا الفهم والتبرير تبدد تماما بعد ما اتضح من سلوك المقاومة الفلسطينية في لبنان. إذ ظهر أن المقاومة وبالتحديد قادتها لم يتعلموا درسا من أجل أخذ العبر وتصحيح المسار وإنما استعملوا تجـاربهم السـابقة ليكرروها بشكل أكثر فظاظة خاصة في مجتمع أكثر انفتاحا من المجتمع في الأردن. بدا واضحا أنه لم تكن هناك نية لدراسة التجربة في الأردن والوقوف عند الأخطاء وأسبابها وأساليب تصحيحها. لم يجر تقييم جدي للتجربـة في الأردن ولم يتم أي بحث علمي حول تصرفات المقاومة أو لوقوف الشعب جانبا وعدم دعمها عندما تعرضت لمأزق.

اجتمع قادة المقاومة الفلسطينية بعد خروج المقاومة من الأردن سواء عام 1970 أو عام 1971، لكن المـداولات دارت حول التآمر على المقاومة وقوى الشر والعدوان التي حاكت الدسائس وعملت على الإيقاع بالقوى الثوريـة التقدمية. تم لوم بعض فصائل المقاومة على بعض تصرفاتها في الأردن لكنه لم يصل إلى حد تحميل المسـؤولية ولم يتطور إلى حد محاسبة القيادات والنظر في السلوكيات اليومية والعامة. كان التركيز على الغير وقوى الظلام دون التركيز على الذات وضيق الأفق، ولم يجر تقويم متوازن بحيث يعطي كل عامل من عوامـل الفشـل ثقلـه الملائم.

تعرضت المقاومة الفلسطينية إلى هزة عنيفة، بل إلى هزيمة كبيرة وفشل ذريع. دفع رجال المقاومة الفلسـطينية ثمنا باهظا في الأردن، ودفع الفلسطينيون أيضا ثمنا ما زال الجزء الأكبر منهم يدفعه حتى الآن. وبالرغم من هذا لم تعقد محاكمات للقيادات سواء السياسية منها أو العسكرية ولم تتم مساءلة أي أحد منهم أو تحميلـه المسـؤولية. حصلت المأساة بهذا الحجم الكبير ولم يكن هناك من ينادي بمحاسبة الفاشلين أو على الأقل بالتحقيق بمـا جـرى ومعرفة الأسباب والثغرات والهفوات. سارت الأمور وكأن أحدا من قادة المقاومة لم يخطئ، وكأن التفسيرات لما حصل تتعلق فقط بالغير من القوى المعادية.

لم تتعلم القيادات الفلسطينية درسا من الأردن، أو أنها لم ترد أن تتعلم، واستمرت بذات السلوك في لبنـان ولكـن بوتيرة أكثر حدة وأكثر اتساعا. ذات الأخطاء التي تم اقترافها في الأردن تم تكرارها في لبنـان مثـل التصـرف العنجهي وإزاحة القيادات اللبنانية جانبا لتكون تابعة لأوامر القيادات الفلسطينية، والعمـل علـى تحجـيم سـلطة الحكومة اللبنانية، والاعتداء على الممتلكات الخاصة ومحاولة المس بالأعراض وما له علاقة بالشرف.

بالنسبة للفلسطيني العادي والمناضل البسيط لم تكن الأخطاء جزءا من وعيه ، وحتى لو كانت لم تكن لتثير لديـه الوعي بانعكاساتها على الفلسطينيين واللبنانيين. كان ينظر هذا إلى الأمور من منطلق الثوري الذي يريد تحريـر وطنه، وأن الثورة هي الحاضنة الطبيعية لجهوده والمجسدة لآماله، وإذا حصل خطأ من هذا القبيـل أو ذاك فـإن الأمر عادي لأن الناس غير معصومين ويمكن أن يقعوا في الزلل والهفوات. لم تكن الممارسات الخاطئة جزءا من اهتمام المناضل البسيط وطغى عليها اندفاعه الثوري وتفكيره بالمواجهة مع العدو والشهادة في سبيل الله والوطن. فقد كان يرى الطائرات تقصف مواقع وتصيب أهدافا ويسقط الشهداء والجرحى، وكان هو ذاته يقوم بالكر والفـر والسهر على راحة المواطنين في المخيمات وأمنهم. سيطرت فكرة التحرير على انفعالاته وعواطفـه ومشـاعره، ونسج في داخله عالم المثل والأخلاق القويمة التي تنتعش فيها الثورة وتترعرع.

ربما كان المناضل البسيط مأخوذا بالتأييد الذي كانت تتمتع به المقاومة الفلسطينية مـن قبـل الأوسـاط الشـعبية الفلسطينية والعربية، وبردود الفعل المتعاطفة معها من قبل دول كانت تقود الحركة الثورية العالمية في ذلك الوقت مثل الاتحاد السوفييتي وألمانيا الشرقية وفيتنام. وربما كانت تضيع الممارسات المحلية لقيادات المقاومة في خضم زخم عالمي وحركة سياسية نشطة وتقارير إعلامية متواصلة. فماذا كان يعني اعتداء ضابط على فتاة أمام نشرات أخبار تتحدث عن المواجهات العسكرية الساخنة والصمود الأسطوري لرجال المقاومة والخسائر الجسيمة التـي تقع في صفوف العدو؟ وماذا يعني اقتطاع قطعة أرض من مزرعة فلاح لتكون منطقة مخصصـة للثـوار أمـام طائرة تقصف وكاتيوشا تنطلق صوب مستعمرات العدو في شمال فلسطين؟ وماذا كانت أهمية سيارات عسـكرية فلسطينية تجوب شارع الحمراء بسرعة وبمكبرات صوت أمام أخبار عن خلية مسلحة تتسلل داخل فلسطين فتوقع بالعدو الإصابات وتعود إلى قواعدها سالمة؟

لا شك أن المقاومة الفلسطينية عمرت بالمناضلين الأشداء والثوار الحقيقيين الأوفياء الذين استشهدوا دفاعـا عـن حقوق الشعب وأمن الأهل وطمأنينتهم. لكن هؤلاء لم تكن لهم الكلمة النهائية أو الأولى في تحديد سياسة المقاومة ومسارها. هؤلاء كانوا يبحثون عن النصر ضد العدو أو الشهادة في سبيل الله، ولم تكن بيروت موقعهم الصحيح أو المكان المرغوب فيه. كان هؤلاء في الجنوب على أرض النبطية وصور وجزين ومرجعيـون، علـى خـط المواجهة المباشر مع العدو.

اجتمعت الأسباب الموضوعية المتمثلة برفض بعض الفئات اللبنانية لوجود المقاومة مع الأخطاء الذاتية وأدت إلى حرب في لبنان. ابتدأت الحرب الأهلية عام 1975 ببطولة المقاومة الفلسطينية والقوات اللبنانية التابعـة لحـزب الكتائب المتعامل مع إسرائيل. كانت الحرب ضارية وشديدة ومرعبة بحيث شهدت المجـازر وتـدمير البيـوت وانتهاك الأعراض والتشريد. كانت الغلبة للمقاومة الفلسطينية بداية، إلا أن تدخل الجيش السوري لصالح الكتائـب أحدث توازنا جديدا. دخلت القوات السورية لبنان بناء على قرار عربي من أجل بسط السلام في لبنان، لكنها قامت بدعم الكتائب بدل أن تحاول الفصل بين القوى المتحاربة ووقف الاعتداءات. وقفت القوات السورية مع الكتائـب في حصارها لمخيم تل الزعتر ناحية بيروت الشرقية التي تسكنها أغلبية كتائبية، وطردت السكان وأجهزت علـى

المقاتلين. وتم أيضا طرد سكان حي الكارنتينا الفلسطينيين. فما كان من الفلسطينيين إلا أن طردوا سـكان مدينـة الدامور جنوب بيروت لتكون سكنا للفلسطينيين المطرودين.

حرب لبنان كانت حرب إجرام وحقد. أساء العرب لأنفسهم في حرب خجل الأعداء من ممارساتها القذرة.

خرج الفلسطينيون من الحرب عام 1982 بعدما شنت إسرائيل هجومها على المقاومة الفلسطينية، لكن اللبنـانيين استمروا حتى عام 1990. انقلبت سوريا بعد حين لتدعم القوى الفلسطينية والوطنية اللبنانية ضد الكتائب. كانـت المعادلات غريبة: دعمت سوريا الكتائب في بداية الأمر والتي هي مدعومة أصلا من إسرائيل. غيـرت سـوريا موقفها ودعمت الخط الوطني. عندها قامت العراق بدعم الكتائب ضد الحركة الوطنية نكاية بسوريا. قامت سوريا بعقد تحالف استراتيجي مع منظمة التحرير. لكن المنظمة قامت بدعم العراق في حربها ضد إيران، وقامت سوريا بدعم إيران. خليط عجيب من المواقف السياسية ولا يفسره سوى أن العرب يخططون سياساتهم بناء على أمزجـة شخصية وليس على أطر مؤسسية.

استمرت الحرب اللبنانية حتى عام 1990 عندما سمحت الولايات المتحدة لسوريا باستعمال طيرانها ضد الكتائـب اللبنانية لقاء كسب تأييدها للحرب ضد العراق. وافقت سوريا على إرسال قوات للمشاركة في الحرب الأمريكيـة ضد العراق، فأذنت أمريكا بعد التشاور مع إسرائيل لسوريا باستخدام الطيران. قامت الطائرات السورية بقصـف القصر الجمهوري الذي كان يحتمي فيه ميشيل عون عدو سوريا الأول والذي كان يشغل منصب وزير الدفاع في لبنان. خلال دقائق كان عون قد فر إلى السفارة الفرنسية ووضعت الحرب أوزارها. ويذكر أن لبنان شهد تحالفـا سوريا-إيرانيا مع حزب الله، ويبدو أن هذا الحلف قد تطور ليشمل الرئاسة اللبنانية والحكومة.

التطور الثوري في الأرض المحتلة/ 67

ساءت أحوال الفلسطينيين السياسية والاجتماعية بعد حرب عام 1982 وخروج منظمة التحرير الفلسـطينية مـن بيروت وتشتت الكثيرين من المنضوين تحت مظلتها. انقسم الفلسطينيون على أنفسهم خاصة في حركة فتح، وبـدا الحاضر مريكا والمستقبل غائما. حصلت خلافات داخل حركة فتح بشأن بعض التعيينـات الإداريـة والترتيبـات الداخلية للحركة وطالب عدد من الضباط بإصلاحات جذرية يكون على رأسها تشكيل قيـادة جماعيـة وتحسـين سياسة صرف الأموال. لم تتكلل المطالب بأي نجاح وتبلور قطبان أحدهما بقيادة ياسر عرفات والآخر بقيادة سعيد موسى. ازدادت حدة الخلافات بين القطبين إلى أن نشب قتال بينهما في سهل البقاع اللبناني وفي منطقة طرابلس. أيد الجيش السوري جماعة سعيد موسى التي أصبحت تُعرف باسم فتح الانتفاضة. وكانـت النتيجـة أن اضـطر عرفات إلى مغادرة لبنان مع عدد آخر من مؤيديه.

أثر الوضع سلبيا على الشارع الفلسطيني لما انطوى عليه من رفع السلاح الفلسطيني في وجه الفلسطيني، وسـبب نوعا من الضيق المعنوي الذي كانت له أثار سيئة على الساحة الداخلية للشعب سواء في مخيمات الشتات أو فـي الضفة الغربية وغزة. ومما عمق من الانشقاق الداخلي الفلسطيني زيارة عرفات لمصر والتقائه بالرئيس حسـني مبارك في الاسماعيلية. السبب أن المجلس الوطني الفلسطيني كان قد قرر عدم الاقتراب مـن مصـر إلا بقـدر ابتعادها عن اتفاقية كامب ديفيد، وأن رئيس المنظمة قد خرق القرار. لكن الرئيس ومعه حركة فتح بـررا العمـل على أنه خيار لا بد منه بعدما حصل في لبنان من ملاحقة لمؤيديه، وأن الأحداث لم تترك أمامه بدائلا.

المحصلة أن منظمة التحرير قد ضعفت وأصبحت تنشد السلام مع إسرائيل علنا ومن تحت المظلة المصرية. أمـا الوضع العربي فكان بائسا إلى درجة أنه لم يلح في الأفق أي أمل للتغيير أو لمواجهة إسرائيل. ركزت سوريا على ما أسمته بالتوازن الاستراتيجي مع إسرائيل، وعملت الأردن على التمهيد لعودة إدارتها إلى الضفة الغربيـة فـي حال بروز الظروف المناسبة. الوضع الفلسطيني داخل الأرض المحتلة/67 كان مترهلا أيضا من ناحية المقاومة، وكان منخورا من قبل العملاء والجواسيس. كانت تفرض إسرائيل سيطرة واسعة على الناس بخاصة أنهم تركـوا عبر الزمن بدون تعبئة أو حشد للطاقات. تعرض الناس في الوسط الشرقي وساحل غزة عبر السنوات للاستقطاب السياسي الذي استعمل المال كوسيلة رئيسة ولم يتعرض لبناء ثوري يؤدي فعلا إلى ثورة في مواجهة الاحتلال.

أما الساحة الدولية فلم تكن مشجعة بتاتا ولم تكترث أي من القوتين الأعظم في حينه الاتحاد السـوفييتي وأمريكـا بمعاناة الفلسطينيين. فقط كان هناك أمل في إيران التي رفعت لواء التحرير ونصرة الشـعب الفلسـطيني، إلا أن الحكومات العربية شنت عليها حملة دعائية ضخمة تمخضت في النهاية عن حرب بين العراق وإيران اسـتمرت ثمان سنوات. حتى أن إيران اختلفت مع منظمة لتحرير وطردت ممثلها من طهران.

عاش الناس لفترة من الزمن في تيه، ولم يكن هناك من نشاط سوى اعتماد رئيس المنظمة على مصر في إقنـاع أمريكا بالاعتراف بالمنظمة وفتح مفاوضات معها بناء على قناعة تم التعبير عنها من قبل العديـد مـن القيـادات الفلسطينية بأن أمريكا وحدها تستطيع الضغط على إسرائيل وإرغامها على التسليم ببعض الحقوق الفلسطينية. لكن أمريكا كانت تصر دوما على شروطها التي وضعتها عام 1975 للاعتراف بالمنظمة كلاعب سياسي رئيس فـي المنطقة وهي أن على المنظمة الاعتراف بإسرائيل وبقراري مجلس الأمن 242 و 338 ونبـذ الإرهـاب. لبـت المنظمة عام 1985 أحد شروط أمريكا عندما أعلن رئيسها نبذ الإرهاب وأصدر أوامـره لأتباعـه فـي الوسـط الشرقي وساحل غزة بعد ممارسة ما أسماه بالإرهاب ضد إسرائيل. لكن أمريكا لم تقتنع وأصرت على موقفها.

في هذه الأثناء بدأ الشعب الفلسطيني يتململ قليلا وذلك بمبادرة لملاحقة الجواسيس والعملاء. بدأت المبادرة فـي مخيم جباليا وامتدت إلى مخيمي بلاطة وجنين، لكنها كانت ضحلة ولم تلاحق العملاء الكبـار الـذين لا يكتبـون التقارير وإنما يتمشون مع سياسات الاحتلال. لكن الململة ازدادت مع هـروب بعـض المعتقلـين مـن السـجن الصهيوني واشتباك بعضهم مع قوات الاحتلال، وارتفعت حدتها مـع أعمـال قتـل متبـادل بـين الفلسـطينيين

والإسرائيليين في غزة. وبلغت الأمور حدا مرتفعا مع عملية الطائرة الشراعية التي نفذها الشهيد خالد عكر من القيادة العامة في معسكر جيش إسرائيلي شمال فلسطين.

ترافقت عملية الطائرة مع مؤتمر قمة عربية عقد في عمان ناقش القضية اللبنانية ولم يناقش القضية الفلسطينية، ومع قمة سوفييتية-أمريكية تجاوزت أيضا القضية الفلسطينية.

انتفاضة عام 1987

دفع مجمل الإحباطات والمبادرات الناس إلى أخذ زمام الأمور من قبل الناس حيث أصبح لا معين لهم سوى سواعدهم. حصل هذا عندما دهست شاحنة إسرائيلية سيارة فلسطينية في غزة وقتلت ركابها الأربعة بتاريخ 8/ كانون ثاني، يناير/ 1987. خرجت غزة لوداع الأربعة ليس في جنازة عادية وإنما في تظاهرة سياسية ضد الاحتلال وسياساته. انفجرت مدن ساحل غزة في تظاهرات عارمة في اليوم التالي، ثم تبعت نابلس فالمدن الأخرى والقرى والمخيمات. خرج الناس في كل زاوية من الوسط الشقي وساحل غزة محتجين بوضع الحواجز الحجرية وحرق إطارات السيارات وتوزيع البيانات الداعية للمواجهة ورفع الأعلام الفلسطينية والكتابة على الحيطان ورجم مقار وسيارات الاحتلال بالحجارة.

شارك الناس على مختلف توجهاتهم وأهوائهم في الأعمال الانتفاضية، وقدموا التضحيات الجسام في سبيل رفع صوتهم للعالم علّ هناك من يشعر معهم ويساهم في رفع الظلم. تدفقت الصحافة العالمية على الأرض المحتلة وأخذت التقارير تظهر على شاشات التلفاز وصفحات الجرائد والمجلات. تصدرت الانتفاضة الأخبار العالمية وأصبحت كلمة انتفاضة عالمية ودخلت قواميس اللغات، ووضعت القضية الفلسطينية في صدارة الاهتمامات الشعبية والرسمية. أظهرت الشاشات شباب فلسطين وهم يندفعون بصدورهم ضد السيارات العسكرية، وأظهرت جنود إسرائيل وهم يطاردون الأطفال في الأزقة والحارات. وبهذا حصدت الانتفاضة الكثير من التعاطف الشعبي مع قضية الشعب الفلسطيني.

لم تكن الانتفاضة ذات أهداف محددة كما هو شأن الحركات الشعبية التلقائية غير المبرمجة، لكنه يمكن القول أن الناس أرادوا الخلاص بطريقة أو بأخرى من الاحتلال الذي يثقل عليهم. لكن الفصائل التي تصدرت العمل الجماهيري فيما بعد وضعت أهدافا نصت على أن الانتفاضة مستمرة حتى زوال الاحتلال وإقامة الدولة الفلسطينية المستقلة.

بدأت الانتفاضة شعبية بدون مبادرة من أحد على الرغم من أن أغلب الفصائل الفلسطينية ادعت أنها هي التي خططت للانتفاضة وحركتها. لكن مع الأيام الأولى عمل الإخوان المسلمون على تشكيل قيادة للعمل الانتفاضي

فانبثقت حركة المقاومة الإسلامية (حماس)، وعملت الفصائل الفلسطينية الوطنية على تشكيل قيادة وتكونت القيادة الوطنية الموحدة بمشاركة فتح والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين والحزب الشيوعي. أخذت كل قيادة تصدر البيانات وتوجه الناس حول النشاطات الانتفاضية، إنما كانت الغلبة للقيادة الوطنية الموحدة التي كانت في الغالب المبادر الأساسي في ترتيب أوضاع الحياة العامة.

استمرت الانتفاضة بزخم شعبي كبير لعدة أشهر عندما بدأت جماهيريتها تنحسر تدريجيا لصالح البؤر الفصائلية. أخذت الفصائل تتنافس من أجل إثبات وجودها على الساحة فقرر من لا ينتمي إلى فصيل الانسحاب بيته. لعبت الفئوية التي نمت في السجون الفلسطينية وفي المعسكرات الفصائلية دورا في تمزيق الناس وإضعاف الوحدة الوطنية. هذا فضلا عن بعض الممارسات غير القويمة التي أخذت بعض البؤر تقترفها على حساب الناس وراحتهم مثل قتل بعض الأفراد بدون تدقيق كاف على اعتبار أنهم جواسيس، والتدخل في شؤون الناس الخاصة واستخدام الانتفاضة لتصفية حسابات شخصية.

هبت منظمة التحرير الفلسطينية لدعم الانتفاضة وسادت لديها مقولة أساسية نصت على أن النضال لا بد أن ينتهي بحصاد سياسي. قالت المنظمة أن الشعب يقدم التضحيات وأنه من المهم العمل على قطف الثمار السياسية، فأوعزت إلى أحد مستشاري عرفات بتوجيه رسالة غير موقعة إلى الإدارة الأمريكية قال فيها أن المنظمة على استعداد لقبول الشروط الأمريكية لعام 1975. وانتهت الأمور إلى أن عقد المجلس الوطني الفلسطيني في الجزائر في تشرين الثاني/نوفمبر/ 1988 وقرر القبول بإسرائيل والاعتراف بقراري مجلس الأمن 242 و 338 ونبذ الإرهاب. وأعلن المجلس الاستقلال في 15/تشرين ثاني بناء على قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة الخاص بالتقسيم رقم 181.

لم تقبل الولايات المتحدة بقرار المجلس على اعتبار أنه يتمسك بالقرار رقم 181، واشترطت أن على المنظمة القبول بالشروط الأمريكية كما هي من أجل أن تفتح قنوات ديبلوماسية معها. فتلا رئيس المنظمة بيانا بعد شهر من انعقاد المجلس لبى فيه الشروط الأمريكية. نتيجة لذلك قررت الولايات المتحدة فتح حوار مع المنظمة، الأمر الذي اعتبرته المنظمة انتصارا عظيما لها وللانتفاضة؛ علما أنه كان من الممكن تحقيق ذلك عام 1975 بدون انتفاضات. على أية حال، لم تلبث الولايات المتحدة أن أوقفت الحوار لأن أحد الفصائل الفلسطينية المنضوية تحت لواء منظمة التحرير قام بخطف السفينة الإيطالية أكيلي لاورو، العمل الذي اعتبرته أمريكا إرهابا.

شعر الاحتلال بضيق شديد بسبب الانتفاضة التي فضحته عالميا ووضعت إسرائيل ضمن صورة المحتل القبيح الذي يعادي آمال الشعوب وحرياتها. ولهذا استخدم وسائل كثيرة من أجل قمع الانتفاضة مثل القتل وإطلاق النار بكثافة وتخريب أثاث البيوت وتكسير العظام والاعتقال. استشهد خلال سنوات الانتفاضة حوالي 2500 فلسطيني وسقط آلاف الجرحى. واعتاد جنود الاحتلال اقتحام البيوت وتدمير محتوياتها وإهانة سكانها. أما رابين الذي كان وزيرا للدفاع أصدر أوامره لتكسير عظام الفلسطينيين بالهراوات، وأمر بفتح معتقلات جديدة لاستيعاب آلاف

المعتقلين الفلسطينيين. أقام معتقل مجدو الذي يتسع لحوالي 1500 شخص ومعتقل النقب الذي يتسع لعـدة آلاف. كما أنه افتتح سجونا كانت منسية مثل الفارعة والظاهرية.

لم تكن إجراءات الاحتلال فعالة لوقف الانتفاضة، وأغلبها أعطى نتائج عكسية. بمعنى أن الشـعب الفلسـطيني لا يستجيب ما أمكن لضغوط العدو وإنما يتمرد عليها بالمزيد. وقد لوحظ تاريخيـا أن الشـعب الفلسـطيني يتـأثر بالأوضاع الفلسطينية الداخلية أكثر من إجراءات العدو. إن ما أثر بصورة سلبية على الانتفاضة يلخص بالفئويـة وبالأموال التي تم استخدامها لشراء الذمم. هناك اهتمام قيادي كبير في شراء الدعم السياسي بغض النظـر عـن النتائج السلبية المترتبة عليه.

كان من الواضح أن الانتفاضة تسير بلا هدف وأن مجرياتها اليومية تشير إلى الخذلان. وربما كان من حسن حظ القائمين على الأمور أن دخلت العراق الكويت وبدأت الولايات المتحدة بحشد قواتها لضرب العراق. انشغل العالم بمن فيهم الشعب الفلسطيني بالخليج ومجريات الحرب.

عملت أمريكا بعد دخول العراق للكويت على استصدار قرارات سريعة من مجلس الأمن الدولي، وعملـت علـى تطبيقها فورا. هنا وجد العرب فرصة ليقولوا لأمريكا أنها منحازة وتكيل بمكيالين لأنها لم تعمل عبـر عشـرات السنين على إرغام إسرائيل على الالتزام بقرارات الأمم المتحد بخاصة 242 و425 بينمـا هـي تنهمـك بتنفيـذ القرارات ضد العراق على وجه السرعة. ردت أمريكا بالقول أن تقصيرا قد حصل وأنها ستعمل فورا بعد انتهـاء الحرب على العراق على تناول ملف ما يسمى بالشرق الأوسط وإحقاق الحق. فرح العرب بهذا الكلام العائم غير المحدد وذهب أغلبهم معها لمقاتلة العراق.

المهم أن أمريكا قالت بعد الحرب أنها تعقد مؤتمرا دوليا لحل مشكلة الشرق الأوسط وأن قطـار التسـوية يسـير بسرعة ولن ينتظر المتخلفين عن الصعود. لم تقدم أمريكا حلا أو وعدا بحل وإنما قدمت الفكرة الإسرائيلية التـي طرحت على العرب عقب حرب 1967 وهي المفاوضات الثنائية المباشرة التي تحدد نتائجها الحل بين كل دولـة عربية وإسرائيل. انساق العرب إلى مدريد عام 1991 قابلين ما رفضوه على مدى أربعة وعشرين عاما. ذهـب كل طرف عربي يفاوض وحيدا بمعزل عن الأطراف الأخرى مما أضعف المواقف التفاوضـية العربيـة ومكـن إسرائيل من الحصول على ما عجزت عن تحصيله من خلال الحرب. نتج عن ذلك فيما بعد اتفاق أوسـلو الـذي وقعته منظمة التحرير، واتفاق وادي عربة الذي وقعته الأردن. أما سوريا ولبنان لم يتقدما في المفاوضات وفضلتا تلازم المسارين التفاوضيين. تعثرت المفاوضات مع سوريا بسبب القضايا الأمنية التي تصر عليها إسرائيل ومـع لبنان بسبب قدرة حزب الله على طرد إسرائيل مما رفع الضغط السياسي عن الحكومة اللبنانية.

انتفاضة عام 2000

تمخض اتفاق أوسلو عن إقامة سلطة حكم ذاتي فلسطيني في مناطق من الوسط الشرقي وساحل غزة. تفاءل الفلسطينيون بأن يفضي الاتفاق عن إقامة دولة فلسطينية حقيقية على كامل مساحة الضفة الغربية وساحل غزة تكون القدس-شرق عاصمتها. لكنه تبين لهم مع مرور الأيام أن إسرائيل لا تفسر الاتفاق بالطريقة التي يفسرونه بها، وأنها لم تكن تبحث حقيقة عن شريك في المفاوضات وإنما عن موظف أمن فلسطيني يحرص على الأمن الإسرائيلي في مواجهة المناضلين والمجاهدين الفلسطينيين. تعثرت المفاوضات نحو إقامة دولة ومرت السنين دون تحقيق أي من الحقوق الفلسطينية.

قام الفلسطينيون بانتفاضة عام 1996 أسموها انتفاضة النفق وذلك تبعا لنفق اليبوسيين الذي يسميه اليهود بنفق الحسمونائيين. هذا نفق يمتد تقريبا على طول الجدار الغربي لساحة المسجد الأقصى ويعتبر موقعا سياحيا هاما يؤمه العديد من السياح. فتحته إسرائيل أمام السياح من طرف واحد وعمدت على فتح الباب من الطرف الثاني عام 1996. اعتبر الفلسطينيون ذلك اعتداء على المقدسات الإسلامية فانتفضوا لمدة ثلاثة أيام سقط خلالها الشهداء والجرحى ولكن دون تحقيق نتائج.

وقام الفلسطينيون بانتفاضة من أجل الإفراج عن الأسرى لدى إسرائيل وسقط جرحى وشهداء ولم يتم تحقيق نتائج.

لكن الانتفاضة الأكبر اندلعت عام 2000. حركت السلطة الفلسطينية على أغلب الظن الجماهير في أعمال احتجاجية شبيهة بتلك لعام 1987 من أجل التأثير على السياسة الإسرائيلية عساها تلبي للسلطة بعض المطالب مثل الانسحاب من باقي مناطق الضفة والساحل وإقامة دولة فلسطينية. بدأت الانتفاضة في 29/ أيلول، سبتمبر/ 2000 بعدما قام شارون زعيم حزب الليكود حينئذ بزيارة ساحة المسجد الأقصى والتي يسميها جبل الهيكل. بدأت الانتفاضة بمظاهرات على مداخل المدن حيث الحواجز الإسرائيلية وبقذف الحجارة على الجنود والعربات الإسرائيلية.

تكبد الطرف الفلسطيني بداية خسائر كبيرة في النفوس إذ سقط العديد من الشهداء والجرحى مقابل خسائر طفيفة جدا في الجانب الآخر. لكن الانتفاضة أخذت تتطور مع الأيام إلى مقاومة حتى انحسرت تماما. استسلمت الانتفاضة لصالح المقاومة وأخذت العمليات العسكرية خاصة العمليات الاستشهادية تتصاعد. أوقعت العمليات خسائر متصاعدة في الجنود والمستوطنين، ونقلت انعدام الأمن إلى المدن اليهودية داخل فلسطين المحتلة/ 48.
نتيجة لذلك حققت هذه الانتفاضة إنجازات يمكن تلخيصها فيما يلي:

أ- شهدت هذه الانتفاضة أعلى نسبة خسائر إسرائيلية في النفوس والجرحى مقارنة مـع خسـائر الشـعب الفلسطيني. كانت خسائر الإسرائيليين والصهاينة عبر انتفاضات أو ثورات سابقة عدا انتفاضـة البـراق عام 1929 نسبة لخسائر الفلسطينيين دون 5%. أما الآن فالنسبة تفوق 25%. وهذا ينطبق على أعـداد الجرحى. هذا في غاية الأهمية بسبب أن إسرائيل قامت في جزء كبير من تبريرها السياسي على الأمن، وإذا عدم الأمن فإن التفكير اليهودي سيبدأ يأخذ منحى آخر غير الاستقرار في بلاد لا تعرف الاستقرار.

ب- يتألم اليهود في فلسطين الآن من أوضاع نفسية صعبة للغاية إلى درجة التفكير مرارا قبل الخروج إلـى الشارع لشراء سلعة أو قضاء حاجة. هذا لا ينطبق على كل اليهود إلا أن التعبير عنه واضح في وسائل الإعلام وفي الجلسات الخاصة وفي السلوك اليومي. استطاع الشعب الفلسطيني أن يفرض درجة من منع التجول على الشارع الإسرائيلي وأن يضعه في أزمة نفسية عميقة. لم يعد مـن المسـتغرب أن يـرى المشاهد امرأة إسرائيلية على شاشة المرناة تقول أنها تمنع أبناءها من الخروج إلـى الملعـب مـثلا أو النادي، أو أن يرى شابا يقول أنه لا يرتاد بعض الأماكن ويحاول التفكير بالأوقات المناسـبة للخـروج والتي تقل فيها احتمالات انفجار عبوة تحيله إلى أشلاء.

ت- على الرغم من أنه لا توجد لدينا إحصاءات إلا أن عددا من اليهود الميسورين تركوا الـبلاد آمـلين أن يستقروا في بلاد أخرى. ويتردد أن عددا من المسؤولين الإسرائيليين قد أرسلوا بأبنائهم خـارج الـبلاد تحت ذرائع مختلفة. وإذا استمر الوضع الأمني بالتدهور فإنه من المتوقع أن تشتد الهجرة خارج الـبلاد. فإذا سقطت الحجة الأمنية سقط السبب في البقاء لدى نسبة كبيرة من اليهود. فأغلب اليهود لم يأتوا إلـى فلسطين بسبب انتماء لوطن أو دفاعا عن دين وإنما هربا من وضع مؤلم عاشوه في أوروبـا أو تحـت تأثير الدعاية الصهيونية حول الأمن والرخاء.

ث- تأثرت إسرائيل اقتصاديا بصورة ملحوظة بسبب الانتفاضة. الاقتصاد الإسرائيلي قـوي ويقـوم علـى مرتكزات إنتاجية صلبة ولديه قدرة كبيرة على المنافسة العالمية، وبالرغم من ذلك لحقت بـه أضـرار بخاصة في مجالات الزراعة والسياحة والتجارة مع الأرض المحتلة/67. أشغال عديدة توقفت وكثيرون فقدوا أعمالهم وتدهور معدل الإنفاق وارتفعت معدلات المخزون. ومن المتوقع أن اسـتمرار المقاومـة الفلسطينية سيجعل كرة التدهور الاقتصادي أكثر تسارعا.

ج- لم تأت الإجراءات الإسرائيلية القمعية بنتائج مفيدة لإسرائيل وإنما ولدت مزيدا من العنف وعددا متزايدا من الاستشهاديين. ما زالت إسرائيل تقع تحت تأثير قدراتها العسكرية وتحت الظن بأن العجلة العسكرية سترهب الفلسطينيين مما يدفعهم إلى الإخلاد إلى السكينة. كل هذا الجبروت العسـكري لا يسـتطيع أن يعالج إرادة شخص يقرر أن يموت مجاهدا في سبيل الله. وربما هذا مـا يفسـر التهديـدات العسـكرية المتكررة التي يطلقها المسؤولون الإسرائيليون بنوع من الضيق. تغيب الآن تلك التصريحات التي تعبـر عن الثقة بالذات وبالقدرة العسكرية وتحل محلها تصريحات متشنجة تخرج من أفواه يظهر عليها عـدم

الارتياح والتشكك. ولا شك أنه من المحبط أن يمتلك شخص كل تلك القوة ولا يستطيع أن يخضع شعبا شبه أعزل من السلاح المادي.

باختصار، الوضع الشعبي الفلسطيني صلب وكذلك الوضع الميداني. الخسائر متوقعة في كل لحظة والعدو قوي، لكن خسائر العدو متوقعة في كل لحظة أيضا. واضح أن الأداء الفلسطيني في المواجهة في تطور مستمر وأن عناصر مقاتلة جديدة ستدخل معترك الجهاد. لقد تجاوز الوضع الفلسطيني إمكانية التلاعب به من الخارج على الرغم من أن العناصر الرسمية تعمل جاهدة على جره إلى الوراء. علما أن الطرف الفلسطيني قد دفع حتى ساعة إعداد هذا الكتاب حوالي ألف وأربعمائة شهيد وعشرات الآلاف من الجرحى الذين تراوحت حالاتهم بين الطفيفة والإعاقة المستديمة. تم تدمير آلاف الدونمات من الأراضي الزراعية وعشرات الآلاف من الأشجار المثمرة والحرجية. هدمت مئات البيوت وشردت بالتالي مئات العائلات، فضلا عن أضرار ثانوية وهامة لحقت بآلاف البيوت. هذا فضلا عن الأضرار الاقتصادية الكبيرة الناجمة عن الحصار. يضاف كل هذا إلى الأضرار النفسية التي تلحق بأطفال فلسطين وما يترتب عليها من نتائج مستقبلية.

لكن حتى تستمر المقاومة وتشتد وترغم إسرائيل على الانسحاب والاعتراف الحقوق الفلسطينية من المهم الأخذ بعين الاعتبار القضايا التالية:

أولا: إعادة ترتيب البيت الفلسطيني. كان وما يزال من الحيوي إعادة ترتيب البيت الفلسطيني لما في ذلك من فوائد في أوقات السلم والحرب. يتطلب التقدم بيئة صالحة خالية من الفساد الإداري والمالي ومن الفئوية والاستئثار والتسلط، وكذلك يتطلب تحرير الوطن. المقاومة ليست عملا منعزلا عن المجتمع ومؤسساته وهيئاته وأطره، وهي تتطلب المقومات الاجتماعية والاقتصادية والتنظيمية والأخلاقية المتناسبة معها. إنها بحاجة إلى البيئة المناسبة من أجل أن تنمو وتترعرع وتزداد عنفوانا وقوة.

كان هناك إلحاح من قبل العديد من المفكرين والمثقفين والفصائل والأحزاب منذ بداية الانتفاضة على ضرورة إعادة ترتيب البيت الفلسطيني في مختلف نواحي الحياة بحيث يحصل توزيع أفضل لما نملك من مقومات مادية على نمط تكافلي وتضامني يقي الفقراء والمعوزين شح العيش وضنك الحياة، لكن شيئا من هذا لم يحصل بعد وكأن القائمين على تنسيق النشاطات الاقتصادية لا يعيشون في فلسطين. وكذلك تحدث كثيرون عن إصلاحات إدارية وصياغة برامج اجتماعية وثقافية إلا أن السياسة العامة ما زالت تصم آذانها عن مختلف الطروحات.

لكن الفكرة تبقى قائمة وهي أن المقاومة بحاجة إلى السند الجماهيري الذي يمدها بالحشد والإنتاج ورعاية الفقراء وأسر الشهداء والمعتقلين والجرحى، وبالتكاتف المعنوي والعمل الجماعي والتعاون المتبادل. ولا مفر أمامنا إن أردنا النجاح إلا أن نغير الكثير من سلوكياتنا ومعاييرنا الأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية. وصحيح أن المقاومة

تفرض متطلباتها مع الزمن إلا أن الشعب الفلسطيني يوفر على نفسه جهودا ووقتا إذا عمدت السلطة إلى وضـع البرامج المطلوبة وعملت على تنفيذها.

ثانيا: ظاهرة العملاء. يعرف القاصي والداني أن ظاهرة العملاء على الساحة الفلسطينية من أخطر الظواهر التـي كلفت الشعب الفلسطيني بكافة أطره وفصائله ثمنا باهظا. تتم الإشارة إلى هذا الخطر منذ أكثر من ثلاثـين عامـا وإبان تركز المقاومة الفلسطينية في لبنان، لكن التعامل الجاد بقي غائبا وتم الاكتفاء فقط بملاحقات للعملاء أشبه ما تكون بذر الرماد في العيون. تجددت الدعوات بكثافة في الأحداث الأخيرة لمعالجة الظاهرة لكن الجهود بقيت على استحياء وبعيدة جدا عن المستوى المطلوب.

حتى يتخلص الشعب الفلسطيني من هذه الظاهرة وحصرها ضمن ما هو متوقع عالميا هناك حاجة إلـى وضـع برنامج من شقين: ملاحقة العملاء ووضع خطة لمعالجة الأسباب التي تقود البعض إلى التعاون مع العدو. ملاحقة العملاء وزجهم بالسجون أو إعدامهم لا تكفي ويبقى من المهم البحث في أسباب الظاهرة ومعالجتها من جـذورها. وحسب بعض الدراسات الأولية والتي قد قمت بها في بداية الثمانينيات هناك أسباب اجتماعية ونفسـية وجنسـية واقتصادية تدفع باتجاه التفتيت الداخلي واختراق الصفوف.

وضع البرامج العامة من مسؤولية السلطة، لكن هذا لا يعفي الفصائل والأحزاب. لم تكن الفصائل الفلسطينية دقيقة في انتقاء أفرادها وغاب عنها الحرص الأمني. ركزت الفصائل في معظمها علـى العـدد دون النـوع وأُخـذت بمعسول الكلام على حساب الحقيقة مما أدى إلى اختراقها بصورة فاضحة وحولها إلى كف مكشوف أمام العدو. لا شك أن الفصائل بحاجة إلى تمحيص وتدقيق، وإلى ضرورة التفتيش داخل صفوفها إذا أرادت أن تعـيش أجـواء أمنية "معقولة." ظروف الشعب الفلسطيني الأمنية معقدة جدا وهي تتطلب احتياطات أمنية متناسبة معها.

ثالثا: الوحدة الوطنية الشاملة. تحققت وحدة وطنية فلسطينية ميدانية لكنها تبقى جزئية وتلح بما هو أشمل. الوحـدة الوطنية عبارة عن قيمة عليا لا يقوى أي شعب أو أمة على شق طرقه بنجاح بدونها، ومن المتوقع أن تبقى هـدفا أسمى تهون أمامه الأهداف الأخرى. وهذا جد صحيح في الظروف الطارئة غير العادية مثل هذه التي يمـر بهـا الشعب الفلسطيني. لكن يبدو أن مخططي السياسة الفلسطينية لا يرون في المسألة ما يسـتحق الانتبـاه ففضـلوا الاستمرار في سياسة تبدو منفصمة عن الاتجاه الميداني.

يتحدث الجميع في فلسطين عن الوحدة الوطنية ويتغنون بها، لكن تحقيقها يتطلب أكثر من ذلـك. فحتـى يصـبح التغني منسجما مع الواقع أرى أهمية اتخاذ الخطوات التالية: تحرير الأموال بطريقـة تصـبح فيـه مؤسسـية لا شخصية ولا فئوية، مما يحرر القرار من التفرد. تركيز المال يؤدي إلى تركيز القرار مما يلحق عـادة الضـرر بالناس عموما. ومن ثم تشكيل قيادة جماعية خاضعة للمساءلة والمحاسبة ومعرضة للإقالة من قبل مجالس مهنيـة لا تقوم على أسس فئوية. وكذلك تخليص المؤسسات العامة من الفئوية ومن المحسوبيات والوساطات التي نخرت

بصورة خطيرة في الجسد الفلسطيني. وهذا يمكن أن يتلخص في تشكيل إدارة فلسطينية تقوم على أسـس علميـة مهنية تردف العمل المقاوم الذي هو مسؤولية التنظيمات المقاومة بالدرجة الأولى. عندها يمكن الحديث عن وحدة وطنية شاملة تتحقق فعلا على أرض الواقع، وعندها تلتحم قوى الناس الرسمية والشـعبية، الماديـة والأخلاقيـة، الجماعية والفردية في زخم البناء الداخلي وفي الصراع ضد العدو.

رابعا: الاحتراف العسكري. يثبت شباب فلسطين كل يوم شجاعة كبيرة ورغبة قوية في الفداء والتضحية، لكن هذا لا يكفي. الشجاعة بحاجة إلى تدريب وتنظيم وتوجيه لتعطي أكلها بصورة أكثر كفاءة وأكثر إيلاما للعدو. خـاض شباب فلسطين مواجهات كثيرة ضد العدو ونجحوا في بعضها وأخفقوا في البعض الآخر. ويتبين من خلال مراقبة العمل المقاوم أن شبابا أقدموا على المواجهة ارتجالا دون تخطيط أو تدريب مما كلفهم وكلف الشعب الفلسـطيني غاليا. عدد من المقاومين قضوا نحبهم أو سقطوا جرحى في مواجهات غير محسوبة.

في هذا الصدد هناك قضيتان تحتاجان إلى المعالجة وهما: التحميس غير المبرر والذي يصل حد الفهلوة أحيانـا، والرعاية العسكرية. يلتصق بالأولى بعد اجتماعي خاص بمقومات الشجاعة ومواجهة الموت بجرأة ودون أدنـى تردد ويلتصق بالثانية بعد علمي يحرص على مواجهات عسكرية محسوبة بدقة. تتطلب الأولى جهودا تثقيفية مـن شأنها التغلب على بعض ما هو متوارث من عادات وتقاليد، وتتطلب الثانية برامج علمية للتدريب علـى بعـض الفنون العسكرية والتكتيكات. قطعت بعض الفصائل شوطا جيدا في هذا المجال لكن الاحتراف ما زال يتبلور.

خامسا: النشاط السياسي. هناك من يردد دائما بأن الجهود العسكرية أو المقاومة تؤتي ثمارا سياسية يجب قطفهـا. هذه مقولة يتم ترددها على الساحة الفلسطينية منذ ثلاث عقود، وما يزال البعض يستخدمها بقوة لتبرير التحركات السياسية الرسمية. بصورة عامة، هذه مقولة صحيحة من حيث أن الإنسان لا يحارب من أجل الحرب وإنما مـن أجل تحقيق نتائج مرغوب فيها. لكن ما يجري على الساحة الفلسطينية وما جرى في الماضي من نشاطات سياسية لا ينسجم تماما مع المقولة لأن النشاط السياسي جرى بمنأى عن العمل المقاوم وبدا في كثير من الأحيان متناقض معه. المقولة تتحدث عن انسجام بين النشاط العسكري والنشاط السياسي وليس عن نشاط مقاوم واتفاق أوسـلو أو عن انتفاضة شعبية ومبادرة تينيت. يدور النشاط السياسي في عالم مختلف عن أعمال المقاومة ويبتعد كثيرا عـن تطلعات الشعب الفلسطيني وعن الأهداف المعلنة سواء على المستوى الشعبي أو مستوى المجالس الفلسـطينية أو المواثيق الفلسطينية المكتوبة. أناس يعملون باتجاه المقاومة واستنزاف العدو ويخرج أصحاب النشاط السياسي بين الحين والآخر على الشعب بتمسكهم بالمبادرات الأمريكية والعودة إلى مرحلة ما قبل الانتفاضة والعودة إلى طاولة المفاوضات التي تمت تجربتها عشر سنوات. من شأن هذا أن يذكي التناقض على الساحة الفلسطينية ويصنع نوعا من البلبلة تؤثر سلبيا على المعنويات ووحدة الصفوف. قطف الثمار السياسية مهم جدا لكـن التحـرك السياسـي الحالي لا يرنو إلى ما هو أكثر من ثمار رديئة.